# الثقافة المقاومة:
# دراسة في المنهج

١٠ أعوام على المقاومة الوطنية

د. مسعود ضاهر(*)

## عن التراث المقاوم

إنّ التراث الحيّ هو التاريخ الحقيقيّ للشعوب الذي لا يمكن تجميده في زمن معيّن. لذا فالمعركة التراثيّة، أو بالأحرى الخلاف السجالي الذي يتحكّم بالساحة العربيّة باسم التراث والمعاصرة، هي/هو معركة خارج إطار المواجهة مع الغزو الثقافي الصهيوني للوطن العربي. وهي معركة تنصبّ دوماً على الشكل دون أن تصل إلى المضمون الحقيقي للتراث، أي للقدرة على المجابهة بالثقافة لحماية الشخصيّة القوميّة في مختلف مراحل تاريخها.

كما أنّ مقولة تحرير التراث وحمايته تبقى خارج المعركة الحقيقيّة التي هي التصدّي للغزو الصهيوني في مختلف وجوهه العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة وغيرها. ولا تهدف المعركة إلى تحرير التراث ـ الذي ليس بالإمكان سجنه في الزمان والمكان ـ بل إلى تحرير الإنسان العربي؛ ولا تحرير للتراث إلّا بتحرير الأرض العربيّة وتحرير الإنسان عليها، وما عدا ذلك فمعارك وهميّة تجيد استخدام الألفاظ لكنّها لا تهدم حجراً واحداً من مداميك التبعيّة والتخلّف. وأمّا ثقافة التقليد والحنين الدائم إلى ماضي المجتمع فتبقى خارج المواجهة الحقيقيّة للغزو الثقافي لأنّها لا تحمل مشروعاً لتغيير جذريّ للواقع الراهن. وإذا كانت تلك الثقافة تلقى الكثير أو القليل من الرواج في البلدان العربيّة فليس في ذلك مؤشر على صوابيّتها للمرحلة الراهنة بل دلالة واضحة على أنّ الواقع العربي المعيش لم يتغيّر كثيراً في بناه الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة السائدة، بالإضافة إلى وجود مصلحة أكيدة للمشروع الثقافي الامبريالي الخارجي وللقوى العربيّة المرتبطة به في بثّ مثل هذه الثقافة، ونشرها والتهويل بها ضد قوى المواجهة الحقيقيّة والتغيير الجذري. إنّ استرجاع ثقافة الماضي أو بعض جوانبها الأكثر سلبيّة بشكل خاص، وإعطاءها طابع الطقوس في الممارسة اليوميّة لن يقودا إلى مجابهة صداميّة مع الامبرياليّة الثقافيّة التي عرفت كيف تستفيد من الطرق الصوفيّة والطرق الدينيّة في مراحل كثيرة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر.

---

**إن إسهام التراث في معركة التحرير المعاصرة لا يعني ضرورة توظيفه لصالح مشروع ديني يُفقد ذلك التراث الجانب الأساسي فيه، وهو جانب الانفتاح على الآخرين.**

---

المواجهة بالثقافة التقليديّة نظرة ماضويّة تجعل العلاقة بين التراث والحاضر علاقة تبعيّة مرضيّة لأنّ الحاضر يحتضن الماضي الذي يسكن فيه بشكل دائم دون أن يتدامج معه أو يتداخل فيه إلّا شكليّاً. ومثل هذه الثقافة تجعل الماضي هو الفاعل، والحاضر هو المنفعل، وتنقطع صلة التفاعل بين التراث والمعاصرة بسبب خضوع الحاضر للماضي وعجزه عن تطويره أو عن الإبداع الثقافي والفني ومواجهة تحديات العصر بأدوات ثقافيّة معاصره. هكذا يقمع التراث الماضوي تراث الحاضر والمستقبل معاً ويتحوّل إلى حلقة دائريّة مفرغة باسم الهويّة والأصالة.

وتتبلور الجوانب الأساسيّة لشروط المجابهة بالتراث والهويّة أو الأصالة من خلال الإجابة على الأسئلة الإشكاليّة التي طرحناها وكيفيّة الاستفادة من التراث في معركة المواجهة مع مشروع الامبرياليّة الثقافيّة في الوطن العربي وتحويله إلى مواجهة يوميّة فاعلة في الصراع الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي، الثقافي القائم على الساحة العربيّة ضد معوقات التطوّر والتحرّر على كافة الصُّعُد. فالمجابهة بالتراث الحيّ من موقع المعاصرة وامتلاك أدوات الصدام التي تتطلّبها المرحلة الراهنة يُساعدان في الحفاظ على الشخصيّة العربيّة، ويمنعان تشويه التراث وتزويره وانتحاله، كما يمنعان طمس الهويّة القوميّة أو تذويبها، ويبقيان باب المستقبل العربي مفتوحاً على

---

(*) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في الجامعة اللبنانية.

الإبداع من موقع متميّز وأصيل.

إنّ النظرة للتراث من وجهة نظر عصريّة، ومن موقع الحاضر وتحدّياته، هي وحدها القادرة على إنقاذه من الجمود وإشراكه في بناء المستقبل. ولن يتمّ ذلك باستعادة التراث بكامله، الغثّ منه والسمين، بل بتأكيد الجانب الإيجابي فيه كمصدر أساسي في توكيد الهويّة القوميّة والتمايز الحضاري العربي. فمواجهة الاحتلال، والدفاع عن الأرض والإنسان، والخروج عن طاعة الحاكم المستبد والمحتلّ الأجنبي، وتحريم الولاء له أو التقرُّب إليه أو المصالحة معه أو التودُّد إليه، كلها جوانب أساسيّة من جوانب التراث العربي الإسلامي، ويعُتبر البعض منها من ركائز الدعوة الإسلاميّة. فالدفاع عن الأرض أو الديار، في الفكر الإسلامي، ركن من أركان الإسلام لأنّه دفاع عن الدين، والشهادة في سبيلها شهادة من أجله. لكن إسهام التراث العربي الإسلامي في معركة تحرير الأرض والإنسان والثقافة العربيّة من الغزو الصهيوني لا يعني ضرورة توظيفه لصالح مشروع ديني يُفقد هذا التراث الجانب الأساسي فيه، وهو جانب الانفتاح على الآخرين دون خوف والتعامل معهم من موقع الفكر الواثق بنفسه الذي لا يخشى المواجهة أو فقدان الأصالة فيتحوّل إذّاك إلى فكر مغلق قاعدته مظاهر شكليّة تعطي للممارسة اليوميّة طابع الطقوس وتقديس المظاهر.

إنّ المجابهة بالتراث والهويّة تعني الانطلاق من الحضارة العربيّة الإسلاميّة المنفتحة دوماً على الحضارات الأخرى لمواجهة التخلّف والتبعيّة والتقليد والاستتباع الثقافي والتغريب. وهي شروط ضروريّة لمواجهة شاملة وضمان للتغيير بالتواصل لا بالانغلاق والتقوقع. ولا يتمّ ذلك إلّا بنشر حريّة الفكر المطلقة، وإبطال المظاهر الشكليّة الخادعة التي تضلّل الجماهير العربيّة، والعمل على تغيير الواقع العربي الراهن على قواعد العقل والحريّة والمساواة. ولا تتمّ المواجهة الناجحة إلّا بتكامل شروطها: أي بالربط بين التراث وتحدّيات العصر، وبين السلطة السياسيّة والجماهير الشعبيّة. ففي ظروف الغزو الامبريالي الصهيوني تلعب السلطة السياسيّة العربيّة دوراً أساسيّاً في تعزيز شروط المواجهة وتطويرها أو في إفشالها. لكن معركة التغيير مفروضة، ولا خروج منها إلّا بالقضاء على أسباب التخلّف والغزو والتبعيّة. والسلطة والجماهير العربيّة أمام خيار واحد للقيام بالمواجهة المطلوبة: فإمّا تغيير بالسلطة العربيّة بحيث تنسجم أعمالها مع مصالح الجماهير العربيّة في مواجهة الغزو الصهيوني الجاثم على صدر الأمّة العربيّة، وإمّا تغيير على حساب هذه السلطة بالذات، وستكون هذه الأخيرة هي أولى الضحايا؛ إذ لا بديل عن المواجهة مهما طال الزمن.

المواجهة بالتراث والهويّة ليست إذن مسألة تراثيّة أو ماضويّة بل آنيّة ومستقبليّة بالدرجة الأولى. ذلك أنّ القوى العربيّة المسيطرة هي المسؤولة عن التخلُّف الذي تعانيه الأمّة العربيّة في جميع أقطارها، فقد أثبتت هذه القوى عجزها القاتل عن مواجهة المشروع الثقافي الصهيوني الامبريالي للوطن العربي. وباتت الأسئلة الإشكاليّة للتغيير تطرح نفسها على الشكل التالي: ما دامت المواجهة مفروضة ولا بدّ منها، فهل تكون القوى السلطويّة العربيّة قادرة على تنظيمها أم أنّها باتت معوقاً لها؟ وما دام كثير من القوى السلطويّة العربيّة يصنَّف في خانة المعوّق للمواجهة العربيّة الشموليّة فهل تُطرح مسألة تغييرها بالحدّة نفسها التي تُطرح فيها مواجهة الغزو الصهيوني؟ وإذا كانت القوى المسيطرة تستخدم التراث لتأبيد سيطرتها الطبقيّة محوّلة إياه إلى أشكال ثقافيّة باهتة محايدة غير قادرة على الفعل اليومي، فهل بالإمكان الاستفادة من الجانب الإيجابي من التراث في معركة ضد القوى التي تغزوه من الخارج وتشوّهه من الداخل؟

إنّ للمواجهة الآن طابع الشمولية لأنّ التحدّيات أمام العالم العربي كبيرة على كافة المستويات. والمواجهة الناجحة تأخذ بالاعتبار أبعاداً ثلاثة:

أ - المواجهة بالتراث الفاعل الذي يعطي للعربي ثقة كبيرة بالانتصار، لأنّ تاريخ العرب شاهد على كثير من مراحل التخلُّف والغزو الخارجي تقابلها مراحل صعود أو استنهاض جماهيري تنتهي بهزيمة الغازي واقتلاع جذوره من الأرض العربيّة.

ب - المواجهة بالحاضر وذلك بامتلاك معارف العصر والإبداع من خلالها بما يعطي للعرب دوراً حضاريّاً إلى جانب الشعوب التي تساهم في بناء الحضارة الإنسانيّة. ولا نفع من الانبهار أمام ثقافة الآخرين أو الاستفادة السهلة من نتاجهم الفكري والتقني، لأنّ الآثار اللاحقة ستكون بالغة السوء على الإنسان والمجتمع العربي معاً، وهي المدخل الحقيقي للتبعيّة والاستتباع في كافّة المجالات.

ج - المواجهة بالمستقبل أي بالتخطيط البعيد المدى الذي يستشرف المشكلات الكبرى المرتقبة ويضع الحلول العمليّة والناجحة لها.

وتكامُلُ هذه الأبعاد الثلاثة مسألة في غاية الأهميّة ولن تكون مواجهة ناجحة بسقوط أيّ بعد منها. فالتراث الثقافي الحيّ، والتنمية الثقافيّة المعاصرة، والتخطيط المستقبلي البعيد المدى لسياسة ثقافيّة قائمة على العلم والتكنولوجيا تعتبر جميعها من السمات

الأساسيّة لهذا العصر ومن قضاياه الأكثر تعقيداً. وعندما توضع المجابهة بالتراث والهويّة في موقعها الصحيح إلى جانب البُعديْن الآخريْن تسقط مقولة حماية التراث أو إنقاذه أو وصل ما انقطع معه لتحلّ مكانها مقولة حماية الإنسان العربي نفسه وهو الضامن الوحيد لحماية التراث وتطويره، وحماية الاستقلال والسيادة القوميّة العربيّة، وإعادة ربط الإبداع الحضاري العربي بمجرى الحضارات الإنسانيّة.

## الثقافة العربية قاعدة للاستنهاض مجدَّداً

لعبت الثقافة العربيّة على الدوام دوراً هامّاً في استنهاض الشعب العربي وتطوّره الوطني والديمقراطي، وفي مواجهة كلّ أشكال الغزو الخارجي. وشكّلت الحضارة العربيّة القاعدة الأكثر صلابة في مجابهة الغزوات المتعاقبة على الوطن العربي. ورغم الصعوبات التي تواجهها، وتهدّد تمايزها، وتحاول إلحاقها القسري بالامبرياليّة الثقافيّة، فإنّ الثقافة العربيّة لاتزال صِمام الأمان وقوّة الدفع الأكثر فاعليّة في تحديد مسار التاريخ العربي المعاصر.

**لايجوز أن يقتصر دور الثقافة على التغزّل بالذاتية الثقافيّة المتميّزة، ولايجوز كذلك التنكّر لتلك الذاتية تحت شعار «الثقافة العالمية» الخادع.**

فالحضارة العربيّة نتاج الجوانب الإيجابيّة الفاعلة والمستمرّة في تأثيرها فيه منذ البدايات الأولى حتّى اليوم. ولها مقوّمات عريقة تميّزها عن باقي الحضارات العالميّة بحيث يستحيل التغيير الثقافي وتحقيق التقدّم الحضاري المنشود إلّا بالاستناد إلى تلك المقوّمات بعد تطويرها وتعميق جوانبها تبعاً لحاجات العصر. ولا يجوز أن يقتصر دور الثقافة على التغزُّل والافتخار بالذاتيّة الثقافيّة المتميِّزة، وبالبناء الحضاري الذي أنتجه العرب في ماضيهم المجيد؛ كذلك لا يجوز رفض تلك الذاتيّة أو التنكُّر لها تحت شعار خادع من الثقافة العالميّة التي لا توجد إلّا في أذهان القائلين بها، ولا تتناقض، عند تعريفها العلمي الدقيق، مع خصوصيّات كلّ حضارة وطنيّة أو قوميّة على امتداد العالم بأسره. فالقضيّة، في جوهرها، هي أنّ للأمّة العربيّة في ماضيها تراثاً حضاريّاً متميّزاً، وأنّ هذه الأمّة تتعرّض في واقعها الراهن إلى غزو ثقافي على كافّة المستويات، وإلى تبعيّة شبه كاملة في مجالات كثيرة؛ وحماية الثقافة العربيّة تكمن في حماية الإنسان العربي نفسه، أي بضمان بقائه على أرضه، وتحقيق ذاتيّته الثقافيّة والحضاريّة عليها، ومشاركته في الإبداع الحضاري العالمي. هكذا تتبدّى العلاقة الجدليّة بين استنهاض الإنسان العربي على قاعدة موروثه الثقافي الحضاري، في الجانب الإيجابي منه تحديداً، وبين استنهاض القيم الإيجابيّة الفاعلة في هذه الحضارة حتّى يستند المواطن العربي في مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي إلى قاعدة صلبة يعيشها كلّ يوم ويتأثّر بها وهي القاعدة الروحيّة والماديّة لبنائه الثقافي. فالدفاع عن الثقافة العربيّة دفاع عن الإنسان العربي وعن الذات العربيّة. وهو مشروع متكامل لا يمكن الفصل بين ماضيه وحاضره ومستقبله، ولا بين مستوياته الماديّة والروحيّة والثقافيّة، ولا بين البنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة التي يستند إليها؛ إنّه مشروع المجابهة في كافّة تجلّياتها. الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للوطن العربي يهدِّد الإنسان، والتراث، والقيم، والوجود، والاقتصاد وكلّ جانب حيّ وفاعل لدى الشعب العربي حتّى يستطيع تدمير الوجود العربي في مناطق معيَّنة وإلحاق المناطق الأخرى تبعيّاً بمراكز الرساميل والإمبرياليّة الثقافيّة التي تشكّل الحركة الصهيونيّة جزءاً عضويّاً فيها. كذلك فالاستنهاض الثقافي العربي لمواجهة ذلك المشروع يجب أن يكون من الشموليّة بحيث يستطيع إغلاق كلّ المسالك التي يتسرّب منها الغزو ومحاصرة ما تغلغل من نفوذه في الجسم العربي تمهيداً لاقتلاع المشروع نفسه من الجذور.

المجابهة الثقافيّة هي الأكثر أهميّة لأنّها الأكثر شمولاً والأوسع امتداداً وفاعليّة في الزمان والمكان. فهي مجابهة مباشرة وبالسلاح في كلّ مكان يتمّ التصادم فيه مع العدوّ الصهيوني على الأرض العربيّة المغتصبة. وهي مجابهة مباشرة بالكلمة، وبالإبداع العلمي والأدبي والفنّي في كلّ قطر عربي وعلى امتداد الوطن العربي، حيث يتمّ التصادم مع محاولات الاستتباع الثقافي للإنسان العربي. وتتّسع هذه المجابهة لتصل إلى جميع الساحات العالميّة التي باتت أكثر استعداداً للدفاع عن الحقوق العربيّة، والتراث العربي، والثقافة العربيّة بعد أن برز المشروع الصهيوني على حقيقته كاستعمار استيطاني عنصريّ يتهدّد السلام العالمي وينذر باندلاع حرب نوويّة. فقد نصّت توصيات مؤتمر الأونيسكو الذي عقد في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٧٦ على اعتبار الغزو الثقافي من خلال الاستيطان الاستعماري مخالفة صريحة لكلّ مبادئ حقوق الإنسان. ومازالت توصيات مؤتمرات الأونيسكو المتتالية تنعت الصهيونيّة بالعنصريّة وبأنّها إدارة رجعيّة تُستخدم لقمع الشعب العربي ومنع تحرُّره الوطني والقومي، وتطوُّره الديمقراطي، وتنميته الاقتصاديّة. فالصهيونيّة بناء ايديولوجي متكامل يقوم على استخدام العنف بدرجاته الأكثر همجيّة وبربريّة

لتبرير مفاهيم ايديولوجيّة مبنيّة على العرق النقيّ أو نظريّة شعب الله المختار الذي سُخِّرت لخدمته كلّ الشعوب الأخرى. وقد اختيرت الأرض العربيّة لتطبيق هذه النظريّة الشوفينيّة على أرض الواقع فحملت معها المآسي المستمرّة للشعب العربي. وتصل حدود العنصريّة إلى درجة التمييز بين اليهود أنفسهم وذلك للدلالة على مدى ما تصل إليه الصهيونيّة في احتقار الشعوب الأخرى، علماً بأنّ اليهود العرب شكّلوا قاعدة سكّانيّة كبيرة لإسرائيل، قبيل قيامها وبعده. فمن الواضح إذن أنّ الغزو الثقافي الصهيوني مشروع استعماري استيطاني لا يحمل للعرب على صعيدي الفكر والممارسة، سوى الاحتقار والنظرة الدونيّة، وانتهاك كلّ القيم والمقدّسات العربيّة.

إنّ الثقافة العربيّة في الأرض المحتلّة ليست في مواجهة مشروع ثقافي حضاري يفسح المجال أمام تفاعل بين ثقافتين عالميّتين يمكن تبادل التأثير بينهما حتّى في إطار واقع سياسي يقوم على أساس الغالب والمغلوب. بل إنّها في مواجهة مشروع استيطاني يقوم على التزييف الكامل في محاولة لنفي الآخر ومحو وجوده وشخصيّته وتراثه الحضاري والثقافي. فالمشروع الصهيوني هو الأداة الرجعيّة الضاربة باسم الامبرياليّة الثقافيّة التي تمدّ اسرائيل بالتقدّم التكنولوجي، والمفاعل النووي، ومختلف أشكال الأسلحة الفتّاكة. لكنّ التقدّم التكنولوجي الاسرائيلي لا يمكن أن يصنّف في خانة ثقافة اسرائيليّة ذات بعد شمولي ومتمايز في إطار الثقافة العالميّة ولن يكون بإمكان اسرائيل أن تخلق ثقافتها المميّزة الخاصّة بها لأنّ قيامها بالذات لم يكن، كما يزعم الصهاينة، لتحقيق مشروع بذاته ولذاته بل كأداة رجعيّة عنصريّة لتهديم المشروع الثقافي الحضاري العربي ومنعه من التبلور ضمن خطّة عربيّة تحرُّريّة شاملة.

**لن ينجح مشروع الاستنهاض بالثقافة العربيّة ما لم يُدمّر المشروع الصهيوني ويُقتلع من جذوره.**

لذا فالتحدّي الأكبر أمام مشروع الاستنهاض بالثقافة العربيّة يكمن في مواجهة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني المتجسّد بدولة اسرائيل على الأرض العربيّة. وكما أدرك الصهاينة، ومنذ وقت مبكر، أنّ الغزو الثقافي الصهيوني لن ينجح ما لم يدمّر الإنسان العربي والثقافة العربيّة، فعلى العرب أن يدركوا ويعملوا من أجل قيام النقيض الجذري له. ولن ينجح مشروع الاستنهاض بالثقافة العربيّة ما لم يدمّر المشروع الصهيوني ويقتلع من جذوره.

وقد بات واضحاً بعد أربعين سنة تقريباً على قيام اسرائيل أنّ التفوّق العسكري الصهيوني قاد إلى احتلال الأرض العربيّة واستعباد الناس عليها أو ترحيلهم عنها، لكنّه بقي عاجزاً عن تدمير الذات العربيّة، وهو التدمير الذي من شروطه الأساسيّة أن يتمّ اعتراف المغلوب بالغالب فيتعاون معه ولو من موقع الذليل والتابع على غرار اتفاقيات كامب دافيد التي أفشلها الشعب المصري بنضالاته، ودماء بنيه، وصلابة مثقّفيه وعمّاله وفلّاحيه.

**التفوّق العسكري الإسرائيلي أسطورة ساهمت في ترسيخها بعض الأنظمة العربيّة العاجزة، فجاءت المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة لتثبت بطلان تلك الأسطورة.**

ولقد شكّلت الثقافة العربيّة دائماً قاعدة صلبة يستحيل اختراقها أو تجاوزها من قبل الصهاينة، فعمدوا إلى تشويه بعض جوانبها، وانتحال جوانب أخرى، وإظهار عجزها عن مسايرة التطوّر المعاصر، ومقارنة قدرة اسرائيل على استخدام التكنولوجيا الحديثة وتطويرها بعجز العرب المطبق في هذا المجال واكتفائهم بالتكنولوجيا الاستهلاكيّة دون سواها. لكنّ التقدّم التكنولوجي الاسرائيلي، في جانبه الأساسي، مستورد ويتمّ تطويره لمصلحة الامبرياليّة الثقافيّة فتستفيد منها اسرائيل كأداة محليّة لها؛ وعَجْزُ العرب عن ولوج عصر التقدّم التكنولوجي ليس مسألة مستعصية الحلّ ولا تعني بالضرورة عجزهم المطلق عن الوصول إليه لأنّ الآفاق مفتوحة تماماً شرط توفُّر القيادة العربيّة التي تأخذ على عاتقها تحقيق تلك المهمّة. والفارق النوعي بين الثقافة العربيّة وما يسمّى بالثقافة الصهيونيّة هو أنّ الأولى نسق متكامل من القيم التراثيّة الفاعلة منذ القدم، والقابلة للتطوير في أيّة لحظة، والقادرة على الانتقال من واقع التخلّف والتبعيّة المفروض عليها إلى واقع الإبداع الخلّاق بعد توفير الشروط الضروريّة له. وأمّا ما يسمّى بالثقافة الصهيونيّة فليس ثقافة لأنّها حركة عنصريّة فاشيّة أدانتها المؤسسات العالمية الكبرى، ولأنّه يفتقر إلى مجموعة القيم التراثيّة حتّى يشكّل نسقاً متميّزاً له هويّة أصيلة، ولأنّه، بسبب عجزه عن استنباط مظاهر ثقافيّة وتراثيّة خاصّة به، يلجأ إلى تزييف التراث العربي الفلسطيني ويدّعي تمثيله في المحافل الدوليّة، حتّى أنّه لا يتورّع عن الدعوة إلى تطوير الفولكلور الشعبي الفلسطيني كفولكلور إسرائيلي مادام قد أُنتج على أرض إسرائيل الموعودة. إنّ استيراد التكنولوجيا وتطويرها ليس ثقافة أو بديلاً للثقافة، كما أنّ أسطورة التفوّق

العسكري الإسرائيلي كانت وهماً كبيراً ساهمت في ترسيخه بعض الأنظمة العربيّة العاجزة عن المجابهة فجاءت المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة، وعلى أرض لبنان، لتثبت بالملموس بطلان تلك الأسطورة. وقد تحمل الأيّام القادمة المزيد من انكشافها وزيف البناء الأسطوري الذي بنيت عليه، كما تحمل إمكانيّة التصدّي الناجح لها وصولاً إلى تهديمها والقضاء على مخلّفاتها.

لقد صمدت الثقافة العربيّة بصلابة أمام الغزو الثقافي الصهيوني الهادف إلى هدم الحضارة العربيّة وتشويه معالمها وآثارها في مناطق احتلاله. وتمسّك الشعب العربي في تلك المناطق بثقافته العربيّة، وهويّته العربيّة، وتراثه العربي، ولسانه العربي، ولم تنفع كل أساليب الصهاينة البربريّة في إقامة الثقافة الصهيونيّة المزعومة على أنقاض الثقافة العربية. ونتيجة لهذا الإفلاس الصهيوني تتشدّد اسرائيل في تخريب الموروث الحضاري العربي، وهدمه، ومسخ التاريخ العربي وتشويهه في محاولة لدفع الجماهير العربيّة في الأراضي المحتلّة إلى الاستسلام، والإحباط النفسي، وفقدان الثقة بكلّ ما هو عربي. وبقدر ما تستمرّ اسرائيل في بقائها قويّة إلى جانب دول عربيّة مجاورة ضعيفة مفكّكة وتعاني أشدّ الأزمات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، تزداد الرغبة لدى حكّامها بالتمدّد وتحقيق الحلم الصهيوني بين النيل والفرات. لذلك تكبر تحدّيات الغزو الثقافي الصهيوني للوطن العربي يوماً بعد يوم وتزداد الحاجة الملحّة إلى يقظة عربيّة قوميّة حضاريّة جديدة تستفيد من فشل التجارب السابقة وتتلافى الممارسات الخاطئة النظريّة والعمليّة التي وقعت فيها. وباتت المرحلة الراهنة تتطلّب تحمّل المسؤوليّة الحضاريّة القوميّة العربيّة بسرعة، واستنفار كلّ مصادر القوّة والمنعة في الوطن العربي كلّه لقطع الطريق على التمدّد السرطاني الصهيوني المرتقب من جهة، ولاسترجاع الأرض المغتصبة من جهة ثانية، ولإعادة وصل الثقافة العربيّة بركب الإبداع العالمي من جهة ثالثة. ولا يمكن للمشروع الثقافي الحضاري العربي أن يصبح قادراً على مواجهة التحدّي الصهيوني ما لم يسرع في بناء الإنسان العربي نفسه. وتلعب الثقافة العربية، بمدلولها القومي التحرّري الإنساني، الدور الأساسي في بناء جيل عربي قادر على التصدّي بكفاءة ونجاح، وعلى تأصيل شخصيّته الحضاريّة وإحياء قيمه وضمان سلوكه في إطار مؤسّسات ديمقراطيّة تعتمد العلم والعقل أساساً لها.

إنّ إعادة بناء الثقافة العربيّة لكي تلعب دورها في المواجهة المطلوبة على مستوى الوطن العربي كلّه أضحت ضرورة مصيريّة، ليس فقط للارتفاع بهذا الوطن من المستوى البالغ الانحطاط الذي انحدر إليه بفعل السياسات القمعيّة للقوى العربيّة المسيطرة، بل وبالدرجة الأولى للحفاظ على بقاء الإنسان العربي على أرضه المهدّد بالاقتلاع منها أو بالحياة عليها في ظلّ التبعيّة والاحتلال والتهديد المباشر بالإضافة إلى مشكلات البطالة والجوع والمرض والأمّيّة... ولا بدّ من رفع الصوت عالياً بأنّ قيام اسرائيل على الأراضي العربيّة لم يكن مجرّد مشروع استعماري عادي بل امتداد لامبرياليّة ثقافيّة واقتصاديّة وسياسيّة وعسكريّة لاتزال تعمل بنشاط على إفراغ الشعارات التحرّريّة، كالاستقلال والسيادة القوميّة والوحدة العربيّة وغيرها، من مضامينها العمليّة، فتتحوّل، في الواقع المعيش إلى نقيضها.

ومنذ الحرب العالميّة الثانية حتّى الآن، ورغم أنّ جميع الدول العربيّة باستثناء فلسطين قد نالت استقلالها وسيادتها الوطنيّة والقوميّة المعترف بها رسميّاً في العالم كلّه، فإنّ الأمّة العربيّة تتعرّض لغزو ثقافي امبريالي صهيوني بات ينذر بتفكيك مقوّمات الشخصيّة العربيّة، وطمس هويّتها العريقة والأصيلة، وشلّ قدرتها على مقاومة التحدّيات المصيريّة، ونتيجة للتفكيك الداخلي المستمرّ الذي باتت آثاره واضحة للعيان في كلّ قطر عربي. وجاء تدمير الساحة اللبنانيّة كنموذج لساحات عربيّة أخرى تنتظر مصيراً مشابهاً بسبب أزماتها الداخليّة الخانقة. ولم تتورّع قوى سلطويّة عربيّة عن توجيه الدعوات العلنيّة للتصالح مع الكيان الصهيوني مادام العرب غير موحّدين وبالتالي غير قادرين على المجابهة.

هكذا تريد القوى السلطويّة العربيّة إلباس الجماهير العربيّة عار خيانتها كقوى طبقيّة عربيّة تسلّمت مقاليد السلطة سنوات طويلة وعجزت عن القيام بمهمّات التحرّر الوطني والقومي وباتت عاجزة عن مجرّد الدفاع عن أنظمتها المتداعية. وعندما بلغ العجز السلطوي العربي هذا الدرك من الانحطاط والتخلّف سارعت القوى السلطويّة العربيّة إلى تهيئة الجماهير العربيّة للاستسلام والصلح الذليل مع الغزو الصهيوني لأنّها عاجزة فعلاً عن التصدّي له ومقاومته والتغلّب عليه. لكنّ الجماهير العربيّة التي مازالت تعيش حالة الفقر والجوع والمرض والأمّيّة منذ مئات السنين، والتي وصلتها أخبار الثروة النفطيّة العربيّة من بعيد، هي نفسها التي واجهت الاستعمار الأوروبي وقاومته وانتصرت عليه عسكريّاً، وأجبرته على الرحيل عن الأرض القوميّة العربيّة؛ وقد تمّ لها ذلك عندما توفّرت لها قيادة وطنيّة عرفت كيف توظّف الطاقات العربيّة في معارك قوميّة ناجحة لاتزال أخبارها تثير اعتزاز العرب في جميع أقطارهم كالثورة السوريّة الكبرى، ومعركة تأميم قناة السويس، وإسقاط حلف بغداد، وتحرير الجزائر، وإعلان المقاومة الوطنيّة الفلسطينيّة، وأعمال جبهة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة وغيرها.

فالطاقات العربيّة، البشريّة والثقافيّة والماديّة، كبيرة جداً. والنهوض بالثقافة العربيّة لا يتمّ بإلغاء دورها، لأنّ دعوات التصالح مع العدو إلغاء للثقافة العربيّة وتحقيق لشعار أطلقه دون خجل بعض زعماء الانحطاط العربي الراهن حين قال: «المصالحة مع اسرائيل تقدّم خدمة للعرب واسرائيل معاً لأنّها تستخدم العقل الصهيوني المنظّم والطاقات الماديّة العربيّة». فالمواجهة مع الغزو الصهيوني على كافّة المستويات هي الطريق الوحيدة لاستنهاض الثقافة العربيّة. واستكمال هذه المواجهة حتّى نهايتها يقود بالضرورة إلى تحرير الثقافة العربيّة من التبعيّة، وإلى تحرير الإنسان العربي من الاستلاب. وبدون المجابهة المستمرّة يتمّ إخضاع الإنسان العربي للامبرياليّة الثقافيّة التي تسيطر على مقدّرات شعوب البلدان النامية والمتخلّفة وتقود الأجيال الشابّة فيها إلى مزيد من التبعيّة واليأس فترتمي في أحضان الثقافة الاستهلاكيّة العاجزة عن كلّ تطوير وإبداع.

**ملاحظات ختاميّة حول المجابهة بالثقافة المقاومة**

**الجبهة الثقافيّة الوحدويّة العربيّة قادرة على فرض إرادة التغيير الجذري وتعطيل دور الثقافة الرسمية وإبراز دورها في خداع الشعب العربي.**

هناك حاجة ملحّة لاعتماد العمل العربي المشترك القائم على استراتيجيّة شاملة تحدّد مساره، وتوجّه حركته، وتوحّد أجزاءه، وذلك في إطار خطّة محدّدة وبرامج مرسومة تضع في رأس أهدافها مواجهة الغزو الثقافي الصهيوني للوطن العربي وسبل مواجهته. وإذا كانت مؤسّسات وحدويّة عربيّة كثيرة أُنشئت ثمّ تحوّلت إلى مجرّد واجهة وحدويّة غير فاعلة بسبب الحواجز والمنازعات القطريّة التي أعاقت عملها، فإنّ جبهة ثقافيّة عريضة تضمّ المثقّفين الوحدويّين العرب العاملين على مواجهة ذلك الغزو بكلّ الوسائل الممكنة هي الجبهة القادرة على تخطّي الحواجز القطريّة أو تخطّي الكثير منها. الجبهة الثقافيّة هي ساحة الصراع الايديولوجي التي تُمارَس من خلالها كلّ أشكال الدعوات إلى التصالح مع الغزو الصهيوني أو التصدّي له. وهي الجبهة التي يمارس من خلالها المثقّفون العروبيّون دورهم النضالي والطليعي في دعم حركة التحرّر الوطني العربي فيقدّمون بعملهم هذا خدمة كبرى للثقافة العربيّة وللجماهير العربيّة في معركتها المستمرّة من أجل إزالة كلّ معوّقات التخلّف والتبعيّة.

وفي الوقت الذي امتلأت فيه ترسانة الأسلحة العربيّة لقمع الشعب العربي أكثر ممّا لاستخدامها في المواجهة مع الاحتلال الصهيوني تبرز الجبهة الثقافيّة العربيّة العريضة كحاجة ملحّة للاستنهاض القومي ولمجابهة الاستعمار الخارجي وللقوى الظلاميّة والقمعيّة في الداخل. ليس بالقمع وحده تستطيع الأنظمة العربيّة العاجزة عن تحرير الأرض العربيّة أن تحمي نفسها من غضبة الجماهير الشعبيّة؛ وفي التاريخ العربي الحديث والمعاصر أكثر من شاهد على مصداقيّة هذه المقولة. فالأنظمة العربيّة عاجزة عن سجن شعوبها، والحفاظ على واقع التجزئة والتخلّف والتبعيّة إلى ما لا نهاية بحجّة أنّه أمرٌ واقع بات يهدّد القوى العربيّة كلّها. لذا فالثقافة الوطنيّة الديمقراطيّة العربيّة هي في صلب كلّ مشروع يتصدّى للغزو الثقافي الصهيوني. وتتحوّل هذه الثقافة إلى موقع الهجوم ضدّ الثقافة الاستهلاكيّة السائدة إذا ما عرف المثقّفون الديمقراطيّون العرب كيف يقيمون جبهتهم الثقافيّة على امتداد الوطن العربي ويجعلونها قادرة على التصدّي لكافّة أشكال التغريب والاستلاب والاستتباع الثقافي. وهي، في حال توحّدها ضمن برنامج قومي وحدوي شمولي، قادرة على فرض إرادة التغيير الجذري وتعطيل دور الثقافة الرسميّة وإثبات زيفها وإبراز دورها في خداع الشعب العربي وتضليله خدمةً للإمبريالية الثقافيّة بالدرجة الأولى. فالأنظمة العربيّة كانت قادرة حتّى الآن على ملء ساحة المواجهة الثقافيّة للمشروع الصهيوني بالضجيج الإعلامي وبالتبشير المستمرّ بعظمة حضارتنا العربيّة وقدرتها على الصمود والبقاء، لكنّ الثقافة العربيّة لا تحيا في ذاتها ولذاتها بل بالقوى البشريّة الحيّة التي تتجسّد فيها وتحوّلها إلى سلاح ماديّ في معركة تحرّرها من القيود التي كبّلتها.

فالقضيّة الجوهريّة تكمن في فهم المحتوى الثقافي والحضاري للنضال التحرّري العربي. وهي مسألة إحياء واستنهاض عربي، داخلي بالدرجة الأولى لأنّه ينبع من صميم الإرادة العربيّة في التغلّب على الصعوبات والتحدّيات الكبيرة التي تشكّل الصهيونية أحد أبرز تجلياتها إلى جانب تحدّيات الفقر، والجوع، والأمّيّة، والبطالة، والقمع، وانعدام التخطيط، وسيادة فكر التجزئة وغيرها من المشكلات الأساسيّة والكبرى. ومخاطر المرحلة الراهنة هي أنّ اسرائيل لم تعد تهدف إلى احتواء الأنظمة العربيّة أو ترويضها في معاركها المستمرّة ضدّ كلّ دولة عربيّة على حدة بل تعمل - وبدعم من الولايات المتحدة الأميركيّة والدول الرأسماليّة الكبرى المساندة لاسرائيل - على تفكيك الدول العربيّة المحيطة بها إلى وحداتها الصغرى وإعادة تركيبها، إذا عجزت عن احتلالها، على قاعدة

تطلّعاتها المحليّة كالطائفيّة، والمذهبيّة، والعرقيّة، والقبليّة، والعشائريّة وغيرها بحيث يستحيل إنهاضها مجدّداً أو إعادة اللحمة إلى مكوّناتها الداخليّة قبل سنوات طويلة ضروريّة لترسيخ الكيان الصهيوني على الأرض العربيّة. لقد أصبح الغزو الثقافي الصهيوني للوطن العربي حقيقة ملموسة منذ قيام دولة اسرائيل، وازداد في شراسته إثر كلّ عدوان تقوم به ضدّ العرب، مجتمعين أو منفردين، لأنّ التوسّع العسكري أبرز اسرائيل على حقيقتها العدوانيّة كأداة للامبرياليّة العالميّة في الشرق الأوسط. وقد علّقت الآمال الكبيرة على توقيع اتفاقيات كامب دافيد وأخرى شبيهة بها مع لبنان ودول عربيّة أخرى لأنّ الغزو العسكري لا تتحقّق أهدافه إلّا بقبول المغلوب بالتعاون أو بالتعامل مع الغالب، أي إفساح المجال أمام الثقافة الصهيونيّة وما تمثّله من أهداف فرعيّة تابعة للامبرياليّة الثقافيّة كي تجتاح الثقافة العربيّة وتقود إلى استلاب ذهني، وتخريب نفسي، وتشويه ايديولوجي قومي عربي.

فالهدف الأساسي للامبرياليّة الثقافيّة يقوم على قاعدة تأجيج الصراع الدموي بين العرب على اختلاف طوائفهم، أو بينهم وبين الأقليّات العرقيّة التي تعيش بينهم فتزيد بعض الطوائف والأقليّات من ارتباطها التبعي الدائم بالمشروع الصهيوني التفتيتي للأمّة العربيّة وتكثر الدعوات إلى الكونفدراليّة، واللامركزيّة، والحكم الذاتي، والخصوصيّة الثقافيّة وغيرها في مرحلة تاريخيّة بالغة الخطورة تُطرح فيها الوحدة العربيّة الديمقراطيّة على قاعدة العلمانيّة والعقلانيّة والاشتراكيّة العلميّة كحلّ وحيد يعبّر عن آمال الأمّة العربيّة في الوحدة والحريّة.

هكذا قاد الغزو الثقافي الصهيوني إلى تعميق أزمة الدولة القطريّة العربيّة المعاصرة بحيث طرحت إمكانيّة بقائها واستمراريّتها على بساط البحث. وبسبب فشل المشاريع الوحدويّة السابقة وسيادة فكر التجزئة والإقليميّة والكيانيّة، فقد دخلت إسرائيل، ومنذ اللحظة الأولى لولادتها، كطرف معوّق وفاعل لمنع قيام الدولة العربيّة الواحدة، وإفشال كلّ المشاريع التوحيديّة، والعمل على تشجيع كلّ حركات الانفصال والتجزئة في الوطن العربي. لذلك فالوحدة القوميّة العربيّة، على قاعدتي العقلانيّة والديمقراطيّة، هي النقيض المباشر للحركة الصهيونيّة وللإمبرياليّة الثقافية الداعمة لها.

لقد عرفت الحركة الصهيونيّة كيف تدمج بين فكرها الاستيطاني العنصري وبين تمثيلها للحضارة الرأسماليّة في مرحلتها الامبرياليّة واعتبرت نفسها على الدوام ممثّلاً للغرب بكلّ ثقافته، وتقنيّته، ومؤسّساته السياسيّة والعسكريّة والإداريّة. لذلك ترتدي معرفة اللحمة الدائمة بين اسرائيل ومصالح الرساميل العالميّة أهميّة بالغة لأنّ وجود الأمّة العربيّة يتعرّض لمخاطر كبيرة على كافّة المستويات بسبب الالتحام العضوي بين الصهيونيّة والاستعمار الجديد، فكراً وثقافة ومصلحة متبادلة. فالامبرياليّة العالميّة زرعت الصهيونيّة وجعلتها ناراً ودماراً ضدّ العرب. وهناك عدد كبير من العرب، خاصّة ممّن هم في مواقع السلطة الحاكمة، يرفضون المقولة العلميّة التي تضع الصهيونيّة والاستعمار في خندق واحد يعمل على غزو الوطن العربي بمختلف الوسائل؛ لكن هذا الالتحام بات يفقأ العين. وعلى الشعب العربي عبر قواه المنظّمة الأساسيّة والفاعلة أن يدرك حقيقة ذلك الاندماج والعمل على مواجهته دون السقوط في أوهام فكّ التحالف بين طرفي العدو لأنّهما في الحقيقة تجسيد عملي لمصالح واحدة. ومادامت الثقافة العربيّة لم تستسلم للغزو الصهيوني فإنّها ستبقى قاعدة الاستنهاض العربي الشمولي ضدّ الغزو الثقافي الصهيوني للوطن العربي.

ومن خلال مواجهة الحلقة الصهيونيّة على أرض الواقع سيجد المثقّفون العرب أنفسهم في مواجهة شاملة مع الامبرياليّة الثقافيّة، المسؤول الأساسي والمباشر عن مشاريع الاستتباع الثقافي والاستلاب الفكري للشعب العربي. فالغزو الثقافي الصهيوني كان، منذ البداية وحتّى الآن، جزءاً من مشروع امبريالي صهيوني معادٍ للأمّة العربيّة ويهدف إلى تهديم ثقافتها والحطّ من قيمة الشخصيّة العربيّة والمبالغة في إظهار سلبيّاتها، حتّى يصار إلى إلحاقها تبعياً بالثقافة الاستهلاكيّة الإمبرياليّة. ومعركة المواجهة مع هذا المشروع صعبة ومعقّدة.

لكن المجابهة الثقافيّة هي الأهمّ رغم تعدّد الساحات وتنوّع أساليب المواجهة فيها. فما لم ينجح الغزو الثقافي الصهيوني في تدمير الثقافة العربيّة وما تُمثّل فإنّه يبقى بمقدور هذه الثقافة أن تستنهض الجماهير العربيّة في معركة مصيريّة يرتبط بنتائجها مصيرُ العرب، أرضاً وشعباً وتراثاً وثقافة. إنّها مواجهة بالغة الشدّة بين ثقافتين لا تلتقيان أبداً في حقل واحد من حقول الصراع إلّا لكي تزيل إحداهما الأخرى بالضرورة. وأمّا ساحة الصراع فتمتدّ من موقع الصدام المباشر في المناطق التي تحتلّها اسرائيل، إلى المناطق العربيّة التي تهدّد إسرائيل باحتلالها، وصولاً إلى اعتبار العالم كلّه أرض الصراع وحقل المجابهة. والناس فيه منقسمون بين مؤيّد للعدوان الاسرائيلي وداعم له، وبين مؤيّد للحقّ العربي وعامل على استرجاع الأرض المغتصبة وإعادتها إلى أصحابها الحقيقيّين حتّى يبنوا عليها دولتهم الوطنيّة الديمقراطيّة العربيّة.